Journal of Alasmarya University
Volume 18, June 2013

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الثامن عشر، يونيو 2013

تجسيدات النخلة في النص التراثي العربي

د. محمود محمد املودة*

أول ما يمكن البحث فيه من تجسيدات للنخلة، هو علاقتها بالمكان، ومن خلال مطالعة النصوص في الدواوين الشعرية، وفي كتب الأدب والأخبار والسير، نلحظ إشارات كثيرة تلح على ذكر مناطق محددة يجري تداولها في معظم النصوص التي أمكن الوقوف عليها، وأول هذه المناطق يثرب وتكاد الصورة المجسّدة لحالة المدينة مع النخيل أن تدخل في دائرة النمطية، ويمكن أن نستحضر المشهد الذي سجله صاحب كتاب صبح الأعشى؛ فقد لاحظ أن النخلة تدخل في مكوّنات المسكن، إذ «غالب أعاليها من أخشاب النخيل»[1]، بل تشكّل النخلة الدعامة الرئيسية في البيئة المدنية؛ حيث «حدائق النخل الأنيقة، وثمرها من أطيب التمر وأحسنه وأغلب قوت أهلها منه»[2].

تحاول بعض النصوص الشعرية أن تضعنا في صورة التحولات التاريخية والاجتماعية التي كانت وراء تكوّن المجتمع المدني؛ الذي يفارق في تكوينه الحضاري ما حوله في جزيرة العرب، فالمدينة مجتمع حضري ولذلك نجد أبياتا شعرية ترجع وجود النخيل في المدينة إلى العماليق القادمين من صنعاء إلى مكة

---

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة مصراته.

1- أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1963م، ج3، ص419.

2- نفسه، ج4، ص294.

ومنها إلى المدينة حيث[3]:

عمـــروا يثربـــاً ولـــيس بهـــا شَـــفَر ولا صـــارخ ولا ذو ســـنام
غرســـوا لينهـــا بمجـــرى معـــين ثـــم حَفّـــوا النخيـــل بالآجـــام

فيما تربط نصوص حضرية أخرى وجود النخلة في المدينة باليهود، وهناك إشارة مهمة في كتب السيرة تعزز هذا الرأي، إذ يروى أن عمر بن الخطاب لم يجل اليهود من المدينة إلا بعد أن «اتسعت رقعة الإسلام ودخل فيه الخاص والعام وكان في المسلمين من يقوم بعمل الأرض وسقي النخل»[4].

وتعطينا بعض النصوص الشعرية الخصوصية الحضرية للمدينة، حيث زراعة النخيل وإنشاء الحصون ومخالطة اليهود، يقول: حسان بن ثابت[5]:

بيثـــرب قـــد شـــيدوا في النخيـــل حصـــوناً ودجـــن فيهـــا الـــنعم
وفيمـا اشـتهوا مـن عصـير القطـاف وعـــيش رخـــي علـــى غيرهـــم
فســـــاروا إلـــــيهم بأثقـــــالهم علـــى كـــل فحـــل هجـــان قطـــم
فمـــا راعـــم غـــير معـــج الخيـــو ل والزحـف مـن خلفهـم قـد دهـم
فابنـــــا بســـــاداتهم والنســـــاء رغمـــــاً وأمـــــوالهم تقتســـــم
ورثنـــــا مســـــاكنهم بعـــــدهم فكنـــــا ملوكـــــاً بهـــــا لم نـــــرم

وترد الإشارة إلى مخالطة اليهود واضحة في نص حسان؛ يقول[6]:

نواضـــح قـــد علمتهـــا الـــ يهـــود عـــلْ إليـــك وقـــولاً هَلـــمْ

3- أبو المحاسن اليغموري، نور القبس المختصر في المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، تحقيق: ردولف زكهايم، الناشر : فرانتس شتايتر، 1964م، ج1، ص 532
4- أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الفكر، بيروت، بلا، 1987م، ص340
5- عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار الأندلس، بيروت، بلا، 1980م، ص 429.
6- نفسه والصفحة عينها

وهناك إشارات شعرية مهمة تتحدث عن (النخيل) بوصفه موضعاً يراد به المدينة معقل الرسول محمد ﷺ وقد جاء ذلك في شعر هبيرة بن أبي وهب، وهو يحرّض الناس على المسلمين يوم أحد، ويعيد ثنائية الحضر والبدو ومسألة غزو المدينة مرة أخرى يقول[7]:

قدنا كنانة من أكناف ذي يمن عرض البلاد على ما كان يزجيها
قالت كنانة أنّى تذهبون بنا؟ قلنا النخيل فأموها وما فيها

وظاهر النص واضح في الدلالة على أن المراد بكلمة (النخيل) هي المدينة المنورة، وهذا المعنى لا نجده متسقاً مع ورود الكلمة في نصوص كثيرة تفيد أن النخيل اسم موضع قريب من المدينة، من ذلك ما أورده ابن هشام في سيرته من قصة أبي دجانة يوم بدر، حيث أنشد[8]:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر في الكيول أضرب بسيف الله والرسول

والكيول آخر الصفوف، وقيل «وراء القوم»[9]، وسياق القصة يدل على أن النخيل مكان قريب من أرض المعركة، وهو ليس المدينة، ويعزز ذلك الأمكنة التي عدّدها الزمخشري وتنسب للنخيل منها ذو أمر وذات الرقاع[10]، ويرد في خبر وفاة النبي المنسوب إلى أبي ذؤيب الهذلي، بيتان من الشعر يقال بأن هاتفا أنشدهما، ومن خلالهما نفهم أن النخيل مكان بالقرب من المدينة وليس المدينة نفسها، والبيتان هما: [11]:

7- ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، تحقيق : جوزف هل، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1، 1982م، ص100

8- ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق : طه سعد، دار الجيل، بيروت، 1970م، ص 125.

9- أسامة بن منقذ، لباب الآداب، تحقيق : أحمد شاكر، دار الجيل، بيروت، ص 214.

10- ينظر: جار الله محمود الزمخشري، الأمكنة والمياه والجبال، تحقيق : إبراهيم السامرائي، مطبعة سعدون، بغداد، 1968م، ص 140.

11- عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1981م، ج3، ص220.

خطـــب أجـــل أنـــاخ بالإســـلام بـــين النخيـــل ومعقـــد الآطـــام
قـــبض الـــنبي محمـــد فعيوننـــا تـــذري الـــدموع عليـــه بالتســـجام

وتحضر الكلمة بذات الدلالة في زمن متأخر، جاء ذلك في كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، أثناء الحديث عن ثورة أحد البراكين بالقرب من المدينة وما صاحب ذلك من زلزلة عظيمة وصوت كدوي الرعد وخروج النار من رأس الجبل، وكان أن فزع الناس إلى قبر النبي محمد ﷺ[12]، وربما تجاوزت مفردة (النخيل) إطارها المكاني إلى إطار زمني عندما أصبحت تطلق على أحد أيام العرب في الجاهلية[13].

ولا شك أن مفردة النخيل سواء في بعدها المكاني أو الزماني إنما تدل على الحضور الفاعل للنخلة، ولهذا جاءت المفردة بصيغة الجمع أي نخل ونخيل، وهذا الاستعمال مرتبط بالأماكن التي يوجد فيها النخل بكثافة، بحيث يشكل جنة كما يقول امرئ القيس وهو يصف ظعائن أحبته[14]:

علـــون بإنطاكيـــة فـــوق عقمـــةٍ كجرمـــة نخـــل أو كجنـــة يثـــرب

والأمر نفسه على أماكن أخرى في جزيرة العرب يوجد فيها النخل بكثرة ولكن الملاحظ أن النخل خارج يثرب لا ينسب إلى المكان بل إلى أصحابه كما في شعر الأعشى الذي يتكلم عن نخل ابن يامن، وهم قوم من هجر، فلا ينسب النخل للمكان بل لأصحابه يقول الأعشى[15]:

فلما استقلت قلت نخل ابن يامن أهـــن أم اللاتـــي تربـــت يثـــرب

12- شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق : مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م، ص97.

13- ينظر: أبي عبيد الله المرزباني، معجم الشعراء، تحقيق: عبدالستار أحمد فرّاج، دار الكتب العلمية، بلا، 1960م، ص306.

14- امرؤ القيس، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط4، د. ت، ص43.

15- أبو بصير ميمون بن قيس الأعشى، الديوان، تحقيق : محمد محمد حسين، دار صادر، بيروت، 1966، ص153

والطريف ما يورده السيوطي حول امرأة اسمها بحنة نسبت إليها «نخلات كن عند بيتها، وكانت تقول هن بناتي»[16].

وعندما تكون النخلة مفردة يتم الإشارة إليها مقرونة بالمكان كما في الشعر المنسوب إلى عبدالرحمن الداخل حيث كان أول نزوله بمدينة الرصافة ونظر فيها إلى نخلة، فهاجت شجنه، وتذكر وطنه فقال على البديهة[17]:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

إن الاستعمال اللغوي يأتي موازياً لحال المشاهدة، وهذا ما يفسر كثرة ورود صيغة المثنى في الإشارة إلى نخلتين منسوبتين إلى موضع محدد، من ذلك نخلتي وادي بوانة يقول عمر بن أبي ربيعة[18]:

أيا نخلتي وادي بوانة حبذا إذا نام حراس النخيل جناكما

ونخلتي أول[19]:

أيا نخلتي أول سقى الأصل منكما مهَيج الربى والمدجنات رواكما
ويا نخلتي أوْل إذا هيت الصبا وأمسيت مقروراً ذكرت ذَراكما
ويا نخلتي أوْل بليت وأنتما جديدان كالبردين طاب شذاكما

وكذلك نخلتي بطن العقيق من ذلك ما ينسب لخلف بن روح الأسدي[20]:

أيا نخلتي بطن العقيق أمانعي جنى النخل والبين انتظاري جناكما

16- السيوطي، المزهر في علوم اللغة العربية وأنواعها، تحقيق: محمد جاد المولى وآخرون، دار الفكر، بيروت، ط1، د. ت، ص 408

17- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س. كولان وإ. ليفي يروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983م، ص60.

18- عمر بن أبي ربيعة، الديوان، شرح : محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الأندلس، بيروت، ط4، 1988م، ص500

19- ابن داود الظاهري، الزهرة، تحقيق : إبراهيم سامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، 1985م، ص76.

20- نفسه.

ونخلتي بطن مطلوب[21]:

يـا نخلـتي بطـن مطلـوب ألفتكمـا فـالنفس لا تنتهـي عـنكم أمانيهـا

ونخلتي مرّان[22]:

أيـا نخلـتي مـرّان هـل لـي إليكمـا علـى غفـلات الكاشـحين سـبيل
أمنيكمـا نفسـي إذا كنـت خاليـاً ونفعكمـا إلا العنـاء قليـل
ومـا لـي شـيء منكمـا غـير أنـني أمـني الصـدى ظليكمـا فأطيـل

ونخلتي وادي النقا[23]:

قفـا فـانظرا هـل يرفـع الآل رفعـة لنـا نخلـتي وادي النقـا فنراهمـا
همـا نخلتـان طالتـا وارجحتـا وطـاب بربعـي الثـرى مغرسـاهما
ظلالهـا تشـفي مـن الـداء والجـوى ويشفي من الخبل الطويل جناهما

نلاحظ في كل النصوص السابقة التركيز على نخلتين منفردتين أي في غياب أي مشاهدة لنخيل آخر، وبالتمعن في الأبيات يمكن أن نقبض بسهولة على خيط وجداني أو شعوري يربط النصوص على تباعدها بعضها مع بعض، وذلك من خلال تركيزها على جني النخل وظلاله، مع شدة الحراسة عليه والتلذذ بما أتيح من لقاء في غفلة من الكاشحين، وكل ذلك يدفع باتجاه عدّ النخلة رمزاً شعرياً لذكريات عاطفية بل ربما تصبح النخلة نفسها كناية عن المرأة، كما سيأتي بيانه.

إن التموضع المكاني للنخلة في صيغة المثنى يجد حضوره المميز في نخلتي حلوان، والأصل في التنبه لهما كان، كما جاء في الأغاني، مصاحباً لحالة عشق شديدة مرّ بها مطيع بن إياس، الذي فارق أو على الأصح باع جاريته وارتحل

21- الأسود الغندجاني، فرحة الأديب في الرد على ابن السيرافي في شرح أبيات سيبويه، تحقيق: محمد علي سلطان، دار العصماء، دمشق، 2008م، ص222.

22- أبوعلي القالي، الآمالي، دار الجيل، بيروت، 1987م، ص341.

23- أبوبكر محمد بن هشام الخالدي، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلين والمخضرمين، تحقيق : سيد محمد يوسف، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1958م، ص215.

ثم تذكرها واشتاق إليها، أي حنين وشوق وضياع شيء ثمين، يقول مطيع وكانت لي جارية يقال لها جودانه كنت أحبها فأمرني سلم بالخروج معه فاضطررت إلى بيع الجارية فبعتها وندمت على ذلك بعد خروجي وتمنيت أن أكون أقمت وتتبعتها نفسي، ونزلنا حلوان فجلست على العقبة أنتظر ثقلي، وعنان دابتي في يدي، وأنا مستند إلى نخلة على العقبة وإلى جانبها نخلة أخرى فتذكرت الجارية وأشتقتها وقلت[24]:

أسعداني يا نخلتي حلوان ... وأبكيا لي من ريب هذا الزمان
واعلما أن ريبه لم يزل يفـ ... ـرق بين الآلاف والجيران
أسعداني وأيقنا أن نحساً ... سوف يلقاكما فتفترقان
ولعمري لو ذقتما ألم الفر ... قة أبكاكما كما أبكاني
كم رمتني به صروف الليالي ... من فراق الأحباب والخلان

ويذكر الزمخشري أن النخلتين أصلهما فارسي، فعنده «هما نخلتان بعقبة حلوان من غرس الأكاسرة»[25]، وفي كل المصادر التي أتيح لي الاطلاع عليها تبين لي أن النخلتين لم يكونا قد عرفا في الثقافة العربية قبل توظيفهما الشعري من قبل مطيع بن إياس، وبعد أن شاع قوله فيهما أصبحا مثلاً على طول الصحبة، جاء في مجمع الأمثال للميداني أن العرب تقول: أطول صحبة من الفرقدين، وأطول صحبة من أبي شمام، وأطول صحبة من نخلتي حلوان[26]، وبذلك يصبح هذا الشاهد مثالاً على توسع النموذج الشعري بحيث يتجاوز المحيط الخاص (حالة مطيع) إلى دائرة أوسع وأعم، وقد طرأ على نخلتي حلوان أمر آخر ساهم في ذيوع توظيفها الشعري، وذلك من خلال خبر يتصل بالسلطة السياسية، إذ تروي كتب الأخبار أن المهدي مرّ بعقبة حلوان، ولما رأى النخلتين «تطير منهما

24- أبو فرج الأصفهاني، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، بلا، 1974م، ج3، ص356.
25- جار الله محمود الزمخشري، المستقصي في أمثال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1977م، ص 205.
26- ينظر: الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، 1987م، ص131.

وقال لئن رجعت لأفرقن بينهما فبلغ قوله المنصور فكتب إليه: بابني أقسمت عليك ألا تكون ذلك النحس الذي يلقاهما»[27]، ويزيد بعض الأخباريين أن المهدي خاف منهما وقال: «لا أقطعها أبداً، ووكل بهما من يحفظهما»[28].

وقد تلقف الشعراء صورة نخلتي حلوان، وأصبح توظيفهما يندرج ضمن التناص الأيقوني، بحيث يتم الاحتفاظ بالأصل الذي رسمت له صورة نخلتي حلوان مع تمرير قناعة أخرى موازية للموضوعة الأصلية (الحنين)، من ذلك جعل النخلتين في مقابل هرمي مصر كقول الشاعر[29]:

وعن هرمي مصر الغداة أمتعا بشرخ شباب أم هما هرمان

وعن نخلتي حلوان كيفا تناءتا ولم يطويا كشحاً على شنآن

فهو يتساءل عن هرمي مصر أهما في حال شرخ في شبابهما أم هما هرمان أي طاعنان في السن، ولكنه عندما تحدث عن نخلتي حلوان ركّز على صمودهما على الفراق الذي لم يكن نتيجة بغض، جاء في لسان العرب «يقال الشنآن، بتحريك النون، والشنآن بإسكان النون: البِغضة»[30]، فالشاعر يتعجب من هذا الفراق (الثنائي) الذي لم يكن له مبرر موضوعي، ولعل هذا الأسلوب الحجاجي هو ما نراه جلياً عند شعراء آخرين، جعلوا نص مطيع نصاً أولياً ومن ثم يتم التعاطي بإطلاق أحكام القيمة، أي أيهما الأولى والأجدر والأصح، من ذلك ما ينسب لحماد بن إسحاق ابن إبراهيم حيث يقول[31]:

27- أبو منصور الثعالبي، تحقيق : إبراهيم صالح، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار البشائر، دمشق، 1994م، ج1، ص590.

28- أبو محمد جعفر بن أحمد السراج القارئ، مصارع العشاق، دار بيروت، بلا، 1900م، ص 112.

29- صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات. الناشر : فرانز شتاينز، بلا، 1982م، ص425

30- ابن منظور، لسان العرب المحيط، تحقيق: يوسف خياط، دار الجيل، بيروت، بلا، 1988م، ج3، ص365.

31- جار الله محمود الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق : سليم نعيمي، مطبعة العاني، بغداد، 1976م، ص149

أيهـــا العـــاذلان لا تعـــذلاني ودعـــاني مـــع البكـــاء دعـــاني
وأبكيـــا لـــي فـــإنني مســـتحق منكمـــا بالبكـــاء أن تســـعداني
إنـــني منكمـــا بـــذلك أولى مـــن مطيـــع بـــنخلتي حلـــوان

وهذا حمّاد عجرد يتساءل كيف أمكن لمطيع أن تسعداه نخلتا حلوان، وهو لم تسعداه سدرتا قصر شيرين؟ ويدعو الله أن يجعل الفراق يطال السدرتين فداءً لنخلتي حلوان، يقول[32]:

جعـل الله سـدرتي قصـر شيريـ ـــن فـــداء نخلـــتي حلـــوان
جئـت مستسـعداً فلـم يسـعداني ومطيـــع بكـــت لـــه النخلتـــان

وواضح أن نص حماد عجرد تجاوز التوظيف الأيقوني لصورة نخلتي حلوان إلى جعلهما حافزاً (Motif) شعرياً، بمعنى أن النخلتين يكونان السبب أو ما يسميه بعض البنيويين الرغبة، فيما النتيجة وهي الحكم المتأتي من الرغبة غير مذكور في النص لأنه في حالة غياب لصالح حضور المرغوب عنه، وهو صمت نخلتي قصر شيرين، والمنتظر أن تبكيا كي تنجيا من المصير الذي توعدهما به الشاعر، ولاشك أن هذا التوظيف الدقيق للنخلتين يقابله استعمال ظاهري أقرب إلى المثل والوعظ على النحو الذي نجده عند بعض الشعراء من مثل قول بعضهم[33]:

أيـن روح الزمـان مـن كنـت حيـ ـــناً وإيـــاه نخلـــتي حلـــوان

وتأبى كتب الأخبار إلا أن تتابع مصير النخلتين، خصوصاً في ظل التنبؤ بالمصير الذي قرره مطيع، إذ لا يفرق بينهما إلا نحس، ولا يخلو الأمر من إسقاط سياسي عندما جعلوا النحس رمز السلطة العباسية، إذ «يروى أن الرشيد في مسيره الأول إلى الري احتاج إلى الجمّار لحرارة ثارت به فأخذ جمار إحدى النخلتين

32- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج14، ص359
33- محمد بن فضل الله المحبي، نفحة الريحانة ورشح طلاء الحانة، عبدالفتاح محمد حلو، د. ن، بلا، 1976م، ص

لدوائه فجفت ولم تلبث صاحبتها أن جفت أيضاً وبطلتا جميعاً»[34].

إن حضور النخلة في النص الشعري خارج جزيرة العرب قليل، بحسب ما توافر لي من نصوص، وهذا لا ينفي واقعيا وجود النخلة خارج جزيرة العرب، بل ربما يرجع غيابها نصوصيا إلى عدم انفعال الشعراء بها، وأما وجودها بوصفها مكوّناً أساسياً في الحياة ضمن كتب الأخبار والبلدان فكثير جداً، فالبصرة مدينة النخيل، وأهلها أعلم الناس «بأحوالها من حين تغرس إلى حين تكتمل وتستوي وأبصرهم بالتمر وخرصه وتمييزه وحرزه وخزنه، وهي تجارتهم العظمى وعدتهم الكبرى، وفي البصرة من أصناف النخيل ما ليس في بلد من بلاد الدنيا»[35].

في الأندلس هناك إشارات إلى النخلة بوصفها موضعاً يعرف بالنخيل في إشبيلية، أو مسجداً في مدينة قرطبة، سمي بمسجد النخيل لكثرة النخل المغروس حوله[36]، مع ورود نص شعري يتحدث فيهما الشاعر عن نخلتين ذكرتاه بأهله الغائبين في جيان، يقول الشاعر[37]:

أيا نخلتي يوماً بالله أسعدا غريباً بكى من فقد أهل وجيران
يحن إلى ظليكما وفؤاده رهين بأظعان حللن بجيان

إن تجسيدات النخلة في القرآن تأتي متنوعة، ومفصّلة، وقد بلغ الحضور النصي لمفردة النخلة وتصريفاتها عشرين موضعاً، منها اثنتا عشرة آية لمفردة النخل، وست آيات وردت فيها مفردة النخيل، وآيتان فقط للنخلة، وقد كان التوزيع المكاني للآيات متبايناً أيضاً، إذ شكّلت الآيات المكية النسبة الأكبر وهي خمسة عشر موضعاً، بينما كانت الآيات المدنية خمسة مواضع فقط.

وإذا أمعنا في الآيات نجد أن النخلة لا تأتي غالباً إلا في سياق ترغيبي،

34- أبو منصور الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تعليق محمد أبو الفضل إبراهيم، نهضة مصر، القاهرة، بلا، 1965م، ص590.

35- محمد بن عبدالمنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م، ص205

36- ابن بشكوال، الصلة، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، 1966م، ص117

37- محمد بن عبدالمنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص197

ولهذا نجد اقترانها الدائم بحالة الاخضرار من حولها، وهذا ما يعبر عنه القرآن بالجنة حيناً، والجنتين والجنات في أحيان أخرى، وهذا متسق أيضا مع الثقافة السائدة آنذاك، فقد ذكر الزمخشري أن العرب إذا ذكرت الجنة فلا يقصدون إلا النخيل و إذا أطلقوا النعيم فهم يقصدون الإبل[38] فالجنة المشكل الأساسي لها هي النخلة، وعند مراجعة النص القراني نجد أن النخلة تنفرد أحيانا بالجنة؛ وذلك في أربع آيات فقط، وهي:

1. ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ ﴾ [البقرة: 266].
2. ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ ﴾ [الإسراء: 91].
3. ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ ﴾ [المؤمنون: 19].
4. ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ ﴾ [يس: 34].

فيما ترد الآيات الأخرى الدالة على حالة الاخضرار مقرونة بأصناف أخرى، ويأتي ذلك إما مع صنف واحد أو مع أصناف متعددة، في الجانب الأول نجد:

1. الزرع: ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ [الأنعام: 141]. ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ [الشعراء: 148].
2. أعناب: ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ [الكهف: 32]. ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ ﴾ [النحل: 67].
3. فاكهة: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴾ [الرحمن: 11].
4. الزيتون: ﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴾ [عبس: 29].

وفي الجانب الآخر نجد:

1. ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: 68].
2. ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ ﴾ [النحل: 11].

ويتضح في كثير من الآيات، التنوع المشهدي للنخلة، فهي إما يراد بيان صورتها، ويتم التركيز على الطلع، ونجد صورتين، الأولى مدنية ويتم التركيز فيها على رسم صورة النخلة المكتملة ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ [الأنعام: 99]،

38- ينظر : الزمخشري، الكشاف، ج 3، ص123

أي عراجينها قريب بعضها من بعض[39]، وهي عند ابن عباس «قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض»[40].

والصورة الثانية مكية، يتم التركيز فيها على نتاج النخلة، مرة لبيان طعمه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: 148]، ومعنى هضيم «اللين النضيج»[41]، وتأتي الآية الثانية ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق: 10]، لتدل على «كثرة الطلع وتراكمه أو كثرة ما فيه من التمر»[42].

وقد وردت إشارة في القرآن إلى وصف مشهد النخلة في حال غراسها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ [الرعد: 4]، وقد فسر الطبري ذلك بأن جعل الصنوان النخلة إلى جانبها نخلة أخرى وغير صنوان، يعني النخلة وحدها[43]، كما ترد النخلة في النص القرآني في دلالتين متغايرتين، في الجانب الأول تدل على انبعاث الحياة من العدم، وذلك في قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام، فالقرآن واضح في دلالته أن النخلة هي شجرة الميلاد ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم: 22-25] وقد وقف الزمخشري عند دلالة النخلة في هذه الآية يقول: «وكان جذع النخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة، وكان الوقت شتاءً، والتعريف لا يخلوا إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق؛ كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس، فإذا قيل جذع النخلة فهم منه ذلك دون غيره من جذوع النخل،

39- جلال الدين المحلى، و جلال الين السيوطي، تفسير الجلالين، دار المعارف، بيروت، بلا، د. ن، ص185.

40- ابن كثير، تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، بلا، د. ت، ج2، ص160

41- جار الله محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، بلا، د. ت، ج3، ص123.

42- الزمخشري، الكشاف، ج4، ص5.

43- محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري؛ جامع البيان عن تأويل آي القران، تحقيق: محمود شاكر، دار المعارف، القاهرة، بلا، 1972م، ج13، ص99.

وإما أن يكون تعريف الجنس: أي جذع هذه الشجرة خاصة بأن الله تعالى إنما أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو خرسة النفساء الموافقة لها، ولأن النخلة أقل شيء صبراً على البر وثمارها إنما هي من جمارها فلموافقتها لها مع جمع الآيات فيها اختارها لها وألجأها إليها »[44].

وفي الجانب الآخر ترد النخلة في سياق الفناء والدمار، وذلك إما بفعل الإنسان نفسه من خلال عملية الصلب، كما في فعل فرعون مع السحرة الذين آمنوا بموسى إذ قال لهم: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: 71]، ويقول الطبري في سبب اختيار جذع النخل هنا « جذع النخلة أخشن جذع من جذوع الشجر والتصليب عليه أشد من التصليب على غيره »[45]، ويأتي في النص القرآني ما يدل على أن الدمار تم بفعل الطبيعة التي هي مأمورة بأمر الله، وهذا لا يكون إلا في سياق الترهيب وذلك في معرض الحديث عن العذاب الذي لحق بالأقوام الذين كذبوا الرسل، ويكاد استخدام النخل في الإشارة إلى العذاب الجماعي يختص بالعرب البائدة، وهم قوم عاد، يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: 6-7]، ولابن عاشور التفاتة لطيفة في أهمية التشبيه بالنخيل، واختيار الوصف خاوية تحديداً، يقول: « وشبهوا بأعجاز نخل، أي أصول النخل، وعجز النخلة: هو الساق التي تتصل بالأرض من النخلة وهو أغلظ النخلة وأشدها، ووجه التشبيه بها أن الذين يقطعون النخل إذا قطعوه لانتفاع بأعواده في إقامة البيوت للسقف والعصاوات انتقوا منه أصوله لأنها أغلظ وأملأ وتركوها على الأرض حتى تيبس وتزول رطوبتها ثم يجعلوها عمداً وأساطين (...) ووصف (نخل) بأنها (خاوية) باعتبار إطلاق اسم (النخل) على مكانه بتأويل الجنة أو الحديقة، ففيه استخدم، والمعنى: خالية من الناس، وهذا الوصف لتشويه المشبه به بتشويه مكانه »[46]،

44- الزمخشري، الكشاف، ج2، ص506.

45- محمد أمين الجنكي الشنقيطي، أضواء البيان في ايضاح القران، تحقيق : عطية محمد سالم، عالم الكتب، بيروت، بلا، د. ت، ج4، ص63

46- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، بلا، 1984، 24، ص119.

الملاحظ أن ابن عاشور بحث عن المقاربة في التشبيه المشترطة في الجمالية العربية فلم يعثر عليها واضحة فلجأ إلى التأويل، والواقع أن الأمر لا يفهم إلا بوضع المتلقي للنص في خلفية السياق الذي نزلت فيه الآية وكذلك الآية الأخرى وهي تتكلم عن عاد أيضاً، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ﴾ [القمر: 18-20] ، فالآيتان مكيتان موجه الخطاب فيهما إلى كفار قريش، وأهل قريش لا علم لهم بالنخل فهم يرونه باسقاً ممتداً في السماء يضرب بجذوره عميقاً في الأرض، فكان اختيار هذه الشجرة مناسباً لإحداث الخوف والرهبة، فالريح التي تقتلع النخيل هي التي سلطها الله على الذين كفروا.

ولم يكتف كثير من المفسرين بما ورد صريحاً من ذكر للنخلة في القرآن الكريم، بل لجؤوا إلى تأويل عدد من الآيات بحيث تصبح دالة على النخلة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35]، فقد نقل سفيان الثوري عن حصين عن أبي مالك أن المراد النخلة[47]، والأمر نفسه مع قوله تعالى:﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: 25]، فيرى الطبري أن المراد النخلة والحين قدره ستة أشهر[48]، واللينة في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ [الحشر: 5]، هي عند الطبري أيضاً النخلة[49]، وذكر القرطبي أن من بين ما تدل عليه كلمة عوانٌ في قوله تعالى: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: 68]؛ النخلة وهي لغة يمانية[50]، ويورد ابن كثير قصة رجل كانت له نخلة مائلة في سور جاره، ورفض الرجل اهداءها أو التصدق بها رغم طلب الرسول ﷺ ذلك، والقصة مذكورة في أسباب النزول لسورة الليل وتحديداً الآية ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: 5-6] ، فقد اشترى

47- ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج1، ص80

48- محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، تحقيق : أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، بلا، 1972م، ج1، ص425

49- تفسير الطبري، ج1، ص425

50- محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القران، دار الكتاب العربي، القاهرة، بلا، 1967م، ج1، ص449

النخلة أحد الصحابة بأربعين نخلة وتصدق بها نظير النخلة الموعودة في الجنة[51].

تأخذ النخلة بعداً مميزاً في الحديث النبوي الشريف، فالنخلة تكاد تكون مقدسة عند النبي محمد ﷺ، وتفصح الأحاديث الكثيرة التي ترد فيها مفردة النخلة عن الإعجاب النبوي الشريف بهذه الشجرة، فهي حاضرة بقوة في معظم استشهاداته، ويؤسس عليها مجموعة من القيم، ويحمّلها أبعاداً أخرى لم يكن للعرب علم بها.

يغلب على ظني أن موقف الرسول ﷺ من النخلة جاء متسقاً مع حالة الرفض لكل ما ألفه العرب من عادات التحبب والتشاؤم، ولعل من الثابت أن النخلة لم تكن تتخذ طوطما، فكتب الأخبار والسير تتحدث عن اتخاد النخلة أداة لما هو مقدس، من ذلك النخلة التي أمر الرسول ﷺ خالد بن الوليد بقطعها لأن العزى كانت تتخذ عندها[52]، ومن الثابت أيضاً أن الشجرة التي بايع تحتها المؤمنون الرسول لم تكن هي كذلك النخلة، وقد رأينا فيما مضى كيف كان ارتباط النخلة بالديانات الأخرى، فاليهود صلبهم فرعون عليها، وهي العوان كما وضح القرطبي، والنخلة ولد تحتها المسيح ومن ثمرها تغذى وأكلت مريم البتول، كل ذلك في تصوري قاد الرسول الأعظم عليه الصلوات الله إلى إيلاء النخلة عناية خاصة وحضرت في بيته حضوراً متميزاً.

تروى السيدة عائشة زوج النبي ﷺ، أن (الأسودان) وهما التمر والماء[53]، كانا أكثر غذاء الرسول، أي لم يكن اللحم والثريد وغيرهما، مما يحب العرب ويشتهون؛ يحظى بالوفرة في بيت النبوة بمثل ما يحظى منتج النخلة، ولذلك ترد بعض الأحاديث الدالة على فائدة التمر في حفظ الإنسان من السم والسحر[54]،

51- تفسير ابن كثير، ج4، ص 520.

52- ينظر : سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، بلا، 1983م، ج11، ص394

53- أحمد بن حنبل، مسند أحمد، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ج6، ص108

54- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط3، 1987م، ج5، ص

ويحض الرسول الكريم ﷺ على الأكل ويقول للناس من حوله كلوا من عمتكم النخلة[55]، ويأمر بإكرامها، ويرد تعليل نبوي لهذا الإكرام غاية في الجمال، ويدل على فهم عميق للنخلة، فالنخلة تشبه الإنسان في الخلق والخلق، فالنخلة « خلقت من طين، وليس من الشجر يلقح غيرها »[56]، وهي التي ولدت تحتها مريم عيس عليه السلام[57].

إن العلاقة بين النخلة والرسول ﷺ تتجاوز المستوى البشري العادي وترقى إلى مستوى المعجزة، من ذلك أن جذع النخلة الذي كان يخطب عليه الرسول ﷺ سمع له بكاء وأنين عندما اتخذ الرسول ﷺ منبراً خشبياً ولم ينته نحيب الجذع إلا بعد أن عانقه الرسول ﷺ وطيّب خاطره[58]، ومما يدل على المكانة المقدسة للنخلة أن الرسول ﷺ، أخذ جريدتين ووضعهما على قبر يعذب صاحبه، وأشار صراحةً إلى أن ذلك يخفف عنه العذاب[59]، ويجعل الرسول ﷺ من النخلة وتناقص إنتاجها المتعاظم من التمر إحدى علامات يوم القيامة، فقد جاء في الحديث أنه يأتي زمان على الناس لا تحمل النخلة إلا تمرة واحدة[60].

إن الرسول ﷺ، وهو مكيّ النشأة والثقافة، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون قد تعرّف على النخلة في محيطه المكيّ، بل الثقافة السائدة من حوله لا نجد للنخلة حضوراً فاعلاً فيها، وهذا ما يفسر موقفه من عملية التلقيح والحديث

55- إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، بلا، د. ت، ج2، ص66.
56- نفسه والصفحة عينها
57- نفسه
58- ينظر : محمد بن عبدالواحد الحنبلي، الأحاديث المختارة، تحقيق: عبدالملك بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ط1، 1410هـ ج5، ص37.
59- ينظر: أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي، مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط1، 1984م، ج4، ص43.
60- ينظر : أبوبكر عبدالله بن محمد أبي شيبة الكوفي، مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشيد، الرياض، ط1، 1409هـ ج7، ص501

المشهور لو تركتموها لصلحت فتركوا النخيل فشاصت[61]، فلو كان النخيل مما يشاهد في بيئته ما كان هذا موقفه، وربما لهذا السبب رفض طلب الأنصار أن يشرك في نخيلهم المهاجرين، ورضي أن يقاسمونهم التمر[62]، فأهل مكة لا علم لهم بالنخل، ولذلك عندما تعرف على النخلة أعجبته، وأصبحت لا تفارق وعيه، فهو يجعلها مثالاً للمسلم، ويقول لأصحابه «خبروني عن شجرة تشبه أو كالرجل المسلم لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاءً تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها»[63]، ويخبر الرسول ﷺ أصحابه عن مجريات يوم القيامة، حيث الناس يبرزون بأعمالهم، فمنهم من يمر على الصراط ونوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة[64].

ما سبق يؤكد أن تجسيدات النخلة في الحضرة النبوية أخذت أبعاداً مائزة عن كل ما عرف عن العرب، فالرسول ﷺ يعظّم النخلة ويعلي من شأنها، ولذلك لم يأخذ الاقتراح الذي تقدم به أحد الصحابة الذي ينص على تحريم سقي النخل على أهل المدينة[65]، وأما ما ورد من حرقه ﷺ لنخل بني النظير؛ فلعل ذلك تم باجتهاد من بعض الصحابة ثم تعزز بأمر إلاهي خاص، يقول البخاري: «حرق رسول الله ﷺ نخل بني النظير ... فنزلت ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: 5]»[66]، ويذكر القرطبي أن ما تم إحراقه اختلف الناس فيه فبعضهم عدّه ست نخلات، والبعض رأى أن الصحابة قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة، وتحس من حديث القرطبي أن مسألة الإحراق مستثقلة في العرف النبوي،

61- ينظر : محمد بن حبان، صحيح بن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1993م، ج1، ص202

62- ينظر : محمد بن إسماعيل البخاري، الأدب المفرد، دار مكتبة الحياة، بيروت، بلا، 1980م ج 1، ص197

63- تفسير ابن كثير، ج2، ص531

64- ينظر : أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، بلا، د. ت، ج11، ص452

65- ينظر : المعجم الكبير، ج7، ص267

66- صحيح البخاري، ج4، ص1479.

ويورد ما قالته اليهود: « يا محمد ألست تزعم أنك نبي تريد الإصلاح، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر، وهل وجدت فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد في الأرض، فشق ذلك على النبي ﷺ »[67]، وينتهي القرطبي إلى أن القطع تم باجتهاد من الصحابة، وعُدّ صمت الرسول ﷺ إقرارا بذلك، ولم يكن الحرق إلا لإضعاف الخصم، أو لتوسعة المكان للجند، ولذلك يرى القرطبي أن الآية ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ إنما أقرت من نهى عن القطع والحرق، وأعطت العذر لمن أحرق وقطع كحالة استثنائية[68].

مما سبق يؤكّد المكانة المهمة للنخلة عند الرسول ﷺ، ذلك؛ فهو يجعلها مساوية من حيث الرتبة مع ما يفضّله العرب عموماً وذلك فيما يروى عنه من أن « خير مال المرء له مهرة مأمورة، أو سكة مأبورة »[69]، ويقصد بالسكة المأبورة أي مصطفة بالنخيل، وهذا الفهم المتعمق للنخلة وخصائصها من قبل الرسول انعكس في صورة الأحكام الفقهية المتعلقة بالنخلة، فبدءاً من الفضاء الذي تشغله يحدد الرسول ﷺ أن « لكل نخلة مبلغ جريدها حريماً »[70]، كما يحدد زمن بيعها، فقد نهى « عن بيع النخلة حتى تزهو »[71]، ووضع قاعدة للنخل المشاع فالتمر جعله لمن أبّر، ونهى عن العبث بالنخلة من أجل التوصل إلى غير التمر فيها، ومن أجل ذلك نهى عن النقير[72]، كما نهى المهاجرين عن قطع النخل، وقال إنما هي مغانم المسلمين، وقد خص النخلة بحكم فقهي في الحدود لا يتاح لغيرها، إذ

67- أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القران، دار الكتب المصرية، القاهرة، بلا، 1936م، ج18، ص 6.

68- ينظر : نفسه، والصفحة عينها.

69- عبد الرحمن بن علي الجوزي، التحقيق في أحاديث الخلاف، تحقيق: مسعد عبدالحميد محمد السعدني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ، ج2، ص379.

70- محمد بن عبدالله النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990م، ج4، ص109

71- أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي الكبرى، تحقيق: عبدالغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991م، ج4، ص24.

72- مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1955م، ج3، ص158

أقر النبي ﷺ بين أصحابه أنه لا قطع في تمر ولا كثر[73]، والكثر هو الجمّار، وإذا بحثنا في مذهب الإمام مالك وهو المتأسس على عمل أهل المدينة، وجدناه يأخذ الحديث بمعناه العام، فمالك يرى لا قطع في النخل، وقيّد أشهب المسألة فهو يرى أن السارق من النخلة المطروحة في الجنان المحروسة يقطع[74]، ولا شك أن هذا الاحتفاء النبوي بالنخلة قد كان له بالغ الأثر في العناية بالنخلة والتسابق إلى امتلاكها، الأمر الذي أحدث نقلةً في الثقافة السائدة، فغدت النخلة مقصداً للغنم والتبرك معاً، ولاشك أن اشتداد الطلب عليها كان وراء ارتفاع أسعارها زمن عثمان بن عفان، إذ وصل سعر النخلة ألف درهم[75].

مرّ بنا أن النص سواء في شكله الشعري أم الديني والخبري قد حفل بالتجسيدات الجغرافية لمفردة النخلة وتصريفاتها، ويبقى أن نفاتش النص التراثي بغية القبض على الموقف الوجداني من النخلة، فهل تحظى بنفس القدر من القرب والود كما لاحظنا في البيت النبوي؟، أم أن هناك سجالاً يتوزع ما بين المحبين لها والكارهين؟.

ترد إشارات نصوصية مهمة وإن كانت متأخرة نسبياً تؤكد أهمية النخلة وقربها من الإنسان العربي، فهي مما يتهادى به أبناء الصحابة، على نحو ما فعل عبيد الله بن بكرة، فقد أهدى رجلاً أظهر له تبجيلاً وتقديراً لنسبه المتصل بصحابة رسول الله ﷺ أهداه «ضيغة فيها ثلاثمائة جريب نخل»[76]، وقد ورد في الشعر وصف دقيق للرجل المنعّم، وتحضر النخلة من ضمن أهم مشكّلات النعيم عند

73- عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، سنن الدارمي، تحقيق: فواز زمرلي و خالد العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1407هـ ج2، ص229

74- أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر النمري، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، و محمد عبدالكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ج23، ص309

75- النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج3، ص229

76- أبو حاتم محمد بن حيان البستي، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا، 1995م، ص170

الرجل، يقول الشاعر[77]:

وما العيش إلا نومة وتشوّق وتمر على رأس النخيل وماء

ودخلت النخلة بما تشكله من فضاء للراحة الأنس في تداعيات نصوصية، فصار ظلها مطلب الشعراء يحفزون به ذاكرتهم على استدعاء أحبتهم، ولهذا تراهم يطيلون في وصف الفضاء النخلوي على نحو ما نجده في هذه الأبيات التي يخاطب فيها الشاعر نخلتي مطلوب فيقول[78]:

من يعطه الله في الدنيا ظلالكما يكتب له درجات عالياً فيها

تندى ظلالكما والشمس طالعة حتى يتوارى في الغور حاديها

كلتاهما قضب الريحان نبتتها فاعتم بالباسق الريان ضاحيها

وتتكرر تيمة الظل بين الشعراء فمنهم من يجعل من الظل المتغيا الوحيد وهذا متسق مع حالة التصحر التي يعيشها العربي، فما أن يصادف نخلة حتى يسرع إلى ظلها، يقول الشاعر وهو يخاطب نخلتي مرّان[79]:

وما لي شيء منكما غير أنني أمني الصدى ظليكما فأطيل

والبعض الآخر يربطه بالماء[80]:

فيا حبذا ظل النخيل وجرعة تبل غليلي لا كثيب وأجرع

ويتوسع البعض في امتداح الظل، فيجعل منه دواء لما يعانيه من داء وجوى، ويجعل من جنى النخلة وهو في الأغلب هنا الشراب المسكر دواءً من الخبل يقول[81]:

77- ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، د. ت، ج4، ص201

78- الأسود الغندجاني، فرحة الأديب، ص222

79- أبو علي القالي، الأمالي، ص 126.

80- ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1973م، ج، ص 353.

81- الخالدي، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخصرمين، ص 215

ظلالهما تشفي من الداء والجوى ويشفي من الخبل الطويل جناهما

كل ذلك تعززه بعض النصوص التاريخية التي تؤكد الفضاء النخلوي بوصفه متغياً الموسرين، وصار من «عادة أهل المدينة غالباً إذا جاء وقت الصيف يخرجون إلى النخل»[82] يبيتون ويستريحون.

إن المكانة المهمة للنخلة بوصفها فضاءً، تعدّى الاهتمام به والتسابق على حيازته الأغنياء والموسرين إلى ولاة المسلمين أنفسهم، فعندما رثا الشعراء أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز ﷺ كان من ضمن ما ركز عليه الراثي أن الخليفة لم يكن ممن غرّتهم الدنيا بحيث يفعل ما يفعل أصحاب السلطة والمال من المعتاد في التمتع بمهج الحياة والتي من ضمنها اقتناء النخيل، يقول الشاعر[83]:

لم يكن همه عيناً يفجرها ولا النخيل ولا ركض البراذين

وقد صار للنخلة اهتمام خاص من قبل ولاة أمر المسلمين، وأصبح هناك من اشتهر بخرص النخل للسلطان كأبي السقاء الذي «كان يخرص النخيل بالبصرة للسلطان فلا يغلط برطل فضرب به المثل»[84]، واشتهر البعض الآخر بوصفه مندوب السلطان، فهو مكلّف بحماية النخل ومنع العبث به، من هؤلاء: عبدالرحمن بن الوجيه، الذي يمكن أن نطلق عليه اليوم تعبير (شهيد الواجب)، فقد «رأى رجلاً يقطع نخلة مثمرة فعنفه وتوعده ووبخه وتهدده فسقطت النخلة عليه وهو على دابته فقتلتهما معاً»[85]، ويدخل ضمن الاهتمام الخاص بالنخل، أن بعض مالكيه كانوا يشددون الحراسة عليه، بل يستعينون بمن يحرسه لهم من شجعان العرب، على نحو ما فعل بني الريداء عندما استقدموا بني جيلان ليصرموا

82- محمد أمين بن فضل الله المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، ص210.

83- أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: نعيم زرزور و تغاريد بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م، ج1، ص546

84- أبو منصور الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص 189

85- علي بن الحسن الزبيدي الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق : محمد بسيوني عسل، مطبعة الفجالة، القاهرة،

ويحرسوا لهم التمر[86].

ما سبق لا ينفي أن يكون هناك وجه آخر في التعامل مع النخلة، ويتمثل ذلك في هذا الجدل بين المؤيدين والمعارضين لدخول النخلة الثقافة السائدة، وقد تجسد هذا الجدل في النص العربي على صور صراع بين ما هو متعارف ومتوارث من قيم البداوة وبين الجديد والدخيل من مظاهر حياة الحضر، وأبرز ملمح لهذا الصراع نجده في المقارنة بين الإبل بوصفها النموذج البدوي، والنخلة بوصفها الدخيل الحضري، وقد سجّل لنا الشعر هذه الحوارية، وذلك ما يروى عن المرار بن منقذ، فهو شاعر إسلامي تمثل قيمة النخلة فاتخذها أساساً في ماله، وهذا ما لم يعجب زوجته التي عابت عليه عدم تملكه للإبل فرد عليها شعراً[87]:

فإنك إن ترى إبلا سوانا ... ونصبح لا ترين لنا لبونا
فإن لنا حظائر ناعمات ... عطاء الله رب العالمينا
طلبن البحر بالأذناب حتى ... شربن جمامه حتى روينا
كأن فروعها في كل ريح ... جوار بالذوائب ينتصينا
نبات الدهر لا يحفلن محلاً ... إذا لم تبق سائمة بقينا
إذا كان السنون مَجَلّجات ... خرجن وما عجفن من السنينا
يسير الضيف ثم يحل فيها ... محلاً مكرماً حتى يبينا
فتلك لنا غنى والأجر باقٍ ... فغضي بعض لومك يا ظعينا

والمتأمل في الأبيات يلحظ بوضوح أن النخلة تم التعبير عنها بالمعجم نفسه المستخدم في الإبل، ويتبدّا ذلك من خلال المفردات الآتية: حظائر، طلبن، الأذناب، شربن، روينا، فالشاعر لا يتبنى النخلة فقط على مستوى الحياة الاقتصادية، بل نراه يقوم بعملية استبدال في التوظيف الشعري، فما كان من قوالب

86- ينظر: سليمان محمد سليمان، رمز النخلة في الأدب العربي القديم، فصل من كتاب: رؤى نقدية في دراسات أدبية، دار الوفاء، الإسكندرية، بلا، 2004م، ص 115.

87- المفضل بن محمد بن يَعْلي الضبي، المفضليات، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، بلا، د. ت، ص 73، 74.

صيغية خاصة بالإبل يجعلها للنخلة وذلك قصد التأثير في سامعيه، ولا نعدم أن نجد في الأبيات حجاج عقلي، ينتصر فيه للنخلة فهي لا يصيبها ما يصيب الإبل من أمراض وأوبئة وربما موتها بسبب السنين العجاف.

ونجد مثل ذلك أيضاً عند أحيحة بن الجلاح، فقد نقل لنا في شعره حواره مع قومه، الذين لاموه على شراء النخيل عوض شراء الإبل، يقول الشاعر[88]:

لقد لامني في اشتراء النخيل قومي فكلهم يعذل
وأهل الذي باع يلحونه كما عَذل البائع الأول
هو الظل في الصيف حق الظليل والمنظر الأحسن الأجمل

ويورد عمرو بن العلاء حديثاً جرى بينه وبين رجل من عُمان، ويظهر الحوار الذي جرى بينهما التباين في النظر إلى النخل وذلك عندما يسأل أبو عمر الرجل « فما مالك؟ قال: النخل، قلت: فأين أنت عن الإبل؟ قال: إن النخل حملها غذاء وسعفها ضياء وجذعها بناء، وكربها صلاء وليفها رشاء وخوصها وعاء وقروها إناء »[89]، ونجد الموقف نفسه عند هند بنت الحسن الإيادية، فقد قال « لها أبوها يوماً أي المال خير قالت: النخل الراسخات في الوحل المطعمات في المحل »[90]، ومن طريف ما جاء في الانتصار للنخلة؛ هو عقد المقارنة بينها وبين الفواكه، وعندنا هنا نصان؛ الأول: يتناول المنتوج الشجري، فقد جاء في أمالي القالي؛ أنهم ذكروا عند عمر بن الخطاب العنب والرطب، وسألوه: أيهما أطيب، فأرسل إلى أبي حثمة، الذي انتصر في جوابه لمنتوج النخلة وقال: « ليس كالصقر في رؤوس الرقل الراسخات في الوحل المطعمات في المحل، تحفة الصائم وتعلة الصبي، ونزل مريم بنت عمران ... ليس كالزبيب إن أكلته ضرست وإن تركته

88- أحمد بن محمد المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، مجلس دائرة المعارف، حيدر أباد، بلا، د. ت، ص229.

89- الحافظ اليغموري، نور القبس، ص 71

90- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، بيروت، بلا، 1933م، ج2، ص238.

غرثت»[91]، ويمكن أن تلحظ في النص السابق أن التجسيد المكاني؛ أعلى وأسفل كان عاملا مهما في الحكم، وأما النص الثاني فهو نص شعري حيث قام أحد الشعراء بعقد مقارنة بين الكرم والنخل، والمسألة لا تخلو، في ظني، من استعمال رمزي، ويمكن أن نعد التجسيد الزمني هو الفيصل في الحكم لصالح النخلة؛ فالكرم يصبح مقابلاً للعاجل من الأمور فيما النخل للرؤى البعيدة، يقول الشاعر[92]:

رأيت كرماً ذاوياً ذابلاً وربعه من بعد خصب محيل
فقلت إذ عاينته ميّتا لا غرو أن شقّت عليه النخيل

ويمكن أن نكتفي بالحوارية الشعرية التي جرت بين الصلتان وجرير للتدليل على الموقف البدوي من النخلة، لقد أفصح جرير عن المخبوء في الذاكرة الجمعية وتحديداً الموقف من الزراعة عموماً والنخيل خاصة يقول جرير[93]:

أقول ولم أملك سوابق عبرة متى كان حكم الله في كرب النخل

وكرَب النخل كما جاء في لسان العرب «أصول السعف الغلاظ العِراض التي تيبس فتصير مثل الكتف»[94]، وعجز البيت تحوّل إلى مثل، وهذا من القليل النادر فالنخلة لا نجد لها حضورا قويا في الأمثال العربية، وهو يضرب «للرجل يقصّر عما ينزع إليه ويؤهّل نفسه له»[95] ويتّضح موقفه الهجائي أكثر مع بني حنيفة وهم أصحاب نخل، ويركز في هجائه على نقطة بالغة الأهمية، وهي العلاقة بين الإنسان والأرض، فالفلاح لا يستطيع أن يغادر الأرض التي هو عليها، ولذلك يتعرض إلى الغزو وعندما يهزم يفرض عليه الخراج، فالقبائل الحضرية تُسبى ولا تَسبي، ومن هنا، كما يذهب جرير، الحضري لا يعلم شيئا عن الخيل

91- أبو علي القالي، الأمالي، ص 305.
92- صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، ص 319
93- ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، ص134
94- ابن منظور، لسان العرب، جـ5، ص 236.
95- أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، و عبدالمجيد قطماش، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، بلا، 1964م، ص264

التي هي عماد البدو في الغزو ورد الأعداء، يقول جرير في بني حنيفة[96]:

تخـزي حنيفـة أيـام كسـت حممـا منهـا الوجـوه فمـا شـيء بماحيهـا
أيـام تسـبى، ولا تسـبي، ويقتلـها مـا لم تـؤد خراجـا مـن يَعاديهـا
أبنـاء نخـل وحيطـان ومزرعـة سـيوفهم خشـب فيهـا مسـاحيها
قطـع النخيـل وأبـر النخـل عـادتهم قـدما فمـا جـاوزت هـذا مسـاعيها
لو قل: أين هوادي الخيل؟ ما عرفـوا قـالوا لأذنابهـا هـذي هواديهـا

وتتكرر الصورة في هجاء أحمر بن غدانة يقول[97]:

نبئـت عبـداً بـالعيون يسـبني أحمـر سـوّاراً علـى كَـرَب النخـل

ونجد الصورة نفسها تقريباً في هجاء بني يشكر[98]:

لبسـوا إليـه ولكـن يعلقـون بـه كمـا تعلـق راقـي النخـل بـالكرب

وجاء في الأغاني أن عباس بن مرداس دخل في معركة هجاء مع خفاف بن ندبة، وهو شاعر من بني مالك، والذي يهمنا هنا هو ما جاء على لسان عباس، فهو يفتخر بأن قومه ليسوا من أصحاب النخل[99]:

فـأبلغ لـديك بـني مالـك فـأنتم بأبنائنـا أخـبر
فأمـا النخيـل فليسـت لنـا نخيـل تسـقى ولا تـؤبّر

فكما هو واضح لم يكن الموقف الهجائي من النخلة خاصاً بجرير فقط، إنما تداخل معه شعراء آخرون وكلهم كان يعكس ثقافة ممتدة في المجتمع تقوم على تفضيل حياة البدو على حياة الحضر؛ التي كان عمادها الزراعة وهذا ما

96- جرير، الديوان، دار صادر، بيروت، بلا، ب. ت، ص 497.
97- ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق : محمود محمد شاكر، د. ن، القاهرة، بلا، 1974م، جـ2، 450.
98- نفسه، جـ2، ص 699.
99- أبو فرج الأصفهاني، الأغاني، ج8، ص 87

نلمسه في رد الصلتان على جرير[100]:

أعيرتنـــا بالنخـــل أن كـــان مالنـــا لود أبـوك الكلـب لـو كـان ذا نخـل

إن البحث عن الحضور الفاعل للنخلة في الوجدان العربي لا يمكـن تصـوره خارج التوظيف البياني والخيـالي عمومـاً، وربمـا نتوسـع ونقـول بأسـطورة النخلـة وإضفاء شيء من الغرائيبية عليها.

لـو بـدأنا بـالتوظيف الأسـطوري أو الغرائيبيـة للـزم الأمـر قيـاس الحضـور الواقعي للنخلة في الاستعمال الحقيقي، وذلك من خلال تحويلها إلى مثـل، فيكـون حضور النخلة في الـنص حضـوراً أيقونيـاً ومـن ثـم تتحـول الصـورة الأيقونيـة إلى صورة أسطورية، في الإطار الأول نجد نصوصاً شعرية كثيرة تتكلم على النخلـة في رسم حالة معينة من ذلك ما فعله أبو نواس عند الحديث عن البرامكة[101]:

لقـد غرسـوا غـرس النخيـل وثاقـة وما حصدوا إلا كمـا يحصـد البقـلَ

ويتم الاستعانة بمنتجات النخلة لرسم اللوحة، من ذلـك البسـر، وهـو يمثـل مرحلة من مراحل النمو، فهناك من ركز على المرحلـة العمريـة وذلـك في صـورة ترميزية إلى الحالة الاقتصادية أو التحوّلات السياسية كما في قول ابن وكيع[102]:

أمـا تـرى النخـل طازجـاً بلحـاً جـــاء بشـــيراً بدولـــة الرطـــب

وربما اقتصر على اللون، فالبسر في لونه الذهبي يتساءل ابن المعتز[103]

كيـــــف غـــــدا في لونـــــه كعاشـــــــــق مكتئـــــــــب
مكاحـــــل مـــــن فضـــــة قـــــد طليـــــت بالـــــذهب

وربما أُخذ الشاعر بالمنظر العام للنخيل فبـدت لـه وسـط الصـحراء وكأنهـا

100- أبو فرج الأصفهاني، الأغاني، ج2، ص405
101- الراغب الأصـفهاني، محاضـرات الأدبـاء ومحـاورات الشـعراء والبلغـاء، دار مكتبـة الحيـاة، بيروت، بلا، 1980م، ص311
102- النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب، ص112
103- نفسه، ص113

قصور من أحجار كريمة، يقول الشاعر[104]:

كـأن النخيـل الباسـقات وقـد غـدت مناظرهـا حسـناً قبـاب زبرجـد

ولم يكن التوظيف البياني للنخلة كله ضمن الإطار العام، بل نجد نصوصاً شعرية تتجه إلى ربط صورة النخلة بشيء قريب، من ذلك الفرس، والذي لفت نظرهم في النخلة هو طولها، ويتم استحضار هذه الصورة لبيان طول الفرس، من ذلك قول الأعشى[105]:

أمـا إذا اسـتقبلته فكأنـه جـذع سمـا فـوق النخيـل مشـذب

ويلتقط عبيد بن الأبرص الصورة نفسها لكنه يركز على النخل الذي ارتفع بحيث لا يصل إليه المجرمون وهم من يقوم بقطع التمر والجريد، يقول عبيد[106]:

والخيـل عاكفـة عليـه كأنهـا سحق النخيـل نـأت عـن الجـرّام

ويصف أحد الشعراء الخيل وهي مقبلة وقد رفعت رؤوسها بالقول[107]:

مـن كـل مشـرفة التليـل كأنهـا عقـدوا بباسـقة النخيـل لجامهـا

ما سبق كان التوظيف البياني الخاص بجسد أو هيئة الفرس، ونجد بعض الشعراء كعمرو بن معدي كرب الزبيدي، يصف أردان الدرع، والردن كما جاء في لسان العرب «الغزل الذي ليس بمستقيم»[108]، فتصبح الصورة متعلقة بما يوضع على جسد الفارس من الدروع فهي تشبه عند الشاعر فيض النخلة المتزاحم[109]:

104- عبد القدر العيدروس، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، تحقيق : محمود أرناؤوط، دار صادر، بيروت، ط1، 2001م، ص203

105- ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وآخرين، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1988م، ج1، ص155.

106- عبيد بن الأبرص، الديوان، تحقيق: د. حسين نصار، ص 123.

107- صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، ص 197

108- ابن منظور، لسان العرب، مادة ردن، المجلد الثاني، ص 1155.

109- عمرو بن معد كرب الزبيدي، الديوان، مجمع اللغة العربية، دمشق، ط2، 1865م، ص137.

تفـــيض علـــى المـــرء أردانهـــا كفـــيض الأتـــي النخلـــة الأجـــرد

ولم أجد، فيما توافر لي من مصادر وقراءة، شعر يربط الناقة أو الإبل بالنخلة على النحو الذي مرّ بنا في الخيل، وكل الذي وجدته يتعلق إما بالمنظر العام للظعائن أي انسياب القافلة، كقول امرئ القيس[110]:

فشـــبهتهم في الآل لمـــا تكمشـــوا حـــــدائق دوم أو ســـــفينا مقيّـــــرا

أو المكرعات من نخيل ابن يامن دوين الصفا اللائي يلين المشقرا

لا تتجاوز الصورة بعد ذلك هودج الظعينة، حيث طول الهودج كالسوامق من النخل، ولونه مختلط بحمرة وصفرة بدا كلون البسر، يقول[111]:

ســـوامق جبّـــار أثيـــت فروعـــه وعـالين قنواناً من البسر أحمرا

وتأتي بعض الصور البيانية لتوظف النخلة في معركة الموت والفناء والدمار، فهذا الشاعر الذي يصف الأبطال وهم يحيطون بالقلعة بأنهم كالليف الذي أحاط برأس النخلة[112]:

وقد أحاطت بها أبطال ذي لجب كما أحاط برأس النخلة الليف

وتأتي بعض الصور موغلة في البشاعة وهي تصور الخصم مجدلاً بدمه كما في شعر مالك بن عويمر الهذلي حيث يقول[113]:

مجـــدلاً يتلقـــى جلـــده دمـــه كما يقطّر جذعَ النخلة القَطَلَ

وقتلى كمثل جذوع النخيل يغشاها شتل منهمر

ونلحظ أن هناك ندرة في النصوص الشعرية التي تجمع فيها الصورة الشعرية بين النخلة والحالة الجسدية للشاعر، وباستثناء بيت واحد فإن الأمر يكاد

110- امرؤ القيس، الديوان، ص57.

111- نفسه، والصفحة عينها

112- النابغة الشيباني، الديوان، تحقيق : ة عبد الكريم إبراهيم يعقوب، وزارة الثقافة، دمشق، 1987م، ص 85.

113- ديوان الهذليين، الدار القومية، القاهرة، بلا، 1965م، ص 130.

يكون عاماً في القلة والندرة، يقول العباس بن الأحنف[114]:

ووليت قد زلت لسكري مفاصلي أميل كجذع النخلة المتزعزع

وأكثر ما استعمل التصوير الجسدي للنخلة في الغزل، إذ وجد الشاعر تشابهاً بين شعر حبيبته وقد عظم واصطفّ بعضه على بعض، وبدا سواد لونه مع بريقه؛ وجد الشاعر الصورة المشابهة لذلك في النخلة، ولا أظن أن الشاعر وهو يلجأ إلى ما هو متاح له وإلا لأصبح التوظيف تهكمي، لكنه يستدعي صورة لم تكن شائعة في البيئة من حوله، فهو يربط المتاح أمامه (شعر حبيبته) بالغائب عن ناظره (رأس النخلة) والجامع بين الاثنين ليس الشكل وحسب إنما الامتناع مع الجمال والنفع، يقول امرئ القيس[115]:

وفرع يغشّي المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل

وأكثر ما يتم المقارنة فيه بين الجسد الأنثوي والنخلة يقتصر في الغالب على شعر المرأة[116]، ويؤكد ذلك أن الشاعر عندما كنى بالنخلة عن المرأة، عُدّ من لطائف الكنايات، من ذلك قول الشاعر[117]:

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام
سألت الناس عنك فخبروني هناة ذاك تكرهه الكرام
وليس بما أحل الله بأس إذا هو لم يخالطه الحرام

وعلق صاحب خزانة الأدب على الأبيات بالقول: فإن هذا الشاعر كني بالنخلة عن المرأة، وبالهناة عن الرفت، فإن العرب كانت تكني بها عن مثل ذلك وأما الكناية بالنخلة عن المرأة فمن ألطف الكنايات[118].

وأحياناً يرد العكس أي تشبيه النخلة بالمرأة، ولا يرد ذلك ضمن ما يسميه

114- العباس بن الأحنف، الديوان، تحقيق : أنطوان نعيم، دار الجيل، بيروت، بلا، 1995م، ص 37.
115- ديوان امرئ القيس، ص 16.
116- سليمان محمد سليمان، رمز النخلة في الأدب العربي القديم، ص132
117- عبدالقادر البغدادي، خزانة الأدب، ج2، ص265
118- نفسه، والصفحة عينها

البلاغيون التشبيه المعكوس كأن نقول القمر كسلمى مثلاً، إن ما نجده في بعض النصوص الشعرية إنما مستهدف به التغزل بالنخلة لا على سبيل الكناية كما مرّ سابقاً والذي يعد طرفة، إنما بوعي تام بجمال النخلة، فهذا شاعر قد نظر إلى النخيل وقد انماز بلون بسره فرآهن عذارى شقراوات[119].

كأن النخيل الباسقات إلى العلا عذارى حجال رجّلت لمماً شَقرا

وهذا ما سبق إليه المرار بن منقذ العدوي وإن كانت التقاطته أكثر دقة، فهو يربط حركة فروع النخل بالجواري وقد تهذلت ذوائبهن وهن يلعبن[120].

كأن فروعها في كل ريح جوار بالذوائب ينتصينا

والصورة نفسها تقريباً نجدها عند أبي عبدالله الحسين بن أحمد المفلس، يقول[121]:

وغيداء تهتز طوع النسيم إذا جد معتله أو مزح

كل الصور السابقة لا تجد فيها خيالاً جامحاً ينتقل بالصورة من الاستعمال الأيقوني إلى الغرائيبية والعجائبية، فلا تلحظ في كل الصور السابقة شيئاً غريبا أو عجيبا والأمر في تصوري راجع إلى طبيعة العلاقة بين الشاعر والنخلة، فكلما كانت النخلة جزءاً من مآليف الشاعر ازداد وعيه بها وتجاوز الوصف الخارجي إلى التوظيف الرمزي والأسطوري، وإذا كانت النخلة بعيدة عنه، فإن مجرد استحضارها كشاهد يظل الأبرز، ويعزز هذا الاستنتاج تعليق الأصمعي على بيت المرار العدوي فعنده أن الشاعر «لم يكن له علم بالنخل»[122].

لنأخذ مثالاً لشاعر عاش وسط النخيل، وهو ابن الرومي، الذي يتكرر

119- محمد بن حسن الكتاني، التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق: إحسان عباس، دار الشروق، بيروت، ط2، 1981م، ص70.

120- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط3، 1983م، ج2، ص587.

121- أبو منصور الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1983م، ص173.

122- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج2، ص587

حضور النخلة في شعره، وغالباً ما يأتي بمفردة النخلة مقرونة بصفة من مثل: النخلة الطولى، والنخلة الموصوفة، ولا يكتفي بالتجسيد الحسي المجرد للنخلة، بل نراه يتأثر بالفهم النبوي للنخلة وتحديداً العلاقة بين السماوي والأرضي والمتجسد في النخلة، وهذا معناه أن الإنسان في الأرض يمثل الجانب السفلي من النخلة من حيث الجذور والجذع (الساق)، وهي وظيفتها العمل فقط، أما الثمرة والقطاف فإنها في السماء في الأعلى حيث الرطب والتمر، في ظل هذا الفهم يصف ابن الرومي ممدوحه بالنخلة الطولى[123].

أنتم النخلة الطولى التي بسقت قدماً وبورك منها الأصل والطرف

وهو يستثمر ثنائية الأدنى والأعلى في المدح أيضاً مولّداً صورة جميلة للذي لا يستطيع أحد أن يؤذيه، ومع ذلك يمنح الآخرين عطاءه[124].

هو النخلة الطولى أبت أن تنالها يدان ولكن ينعها متساقط

وضمن هذا التجسيد / الأعلى-الأسفل؛ نرى صورة أخرى حضرية وهي لابن المعتز، ونراه يعيد تيمة الثبات التي تنبه لها جرير، كما مرّ بنا فإذا كان جرير تناوله من زاوية حربية، فإن ابن المعتز ينظر إلى المسألة من زاوية العظمة والمهابة، فالنخلة باركة في الطين كسيد مهاب، لا يشتكي البعيد بل البعيد (سهيل) هو الذي يأتيه، يقول[125]:

ولقائح في الطين باركة لا تشتكي حلا ولا رحلا
يغدو سهيل في الصباح لها سلما إذا ما حارب الإيلا

مما سبق نخلص إلى أن التوظيف البياني اقتصر على المقاربة بين المشبه والمشبه به وذلك وفق الاستحقاق الدلالي للشعرية العربية على النحو الموضح في

123- ابن الرومي، الديوان، تحقيق: أحمد حسن بسبح، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا، 1994م، ص115.

124- نفسه

125- أبوبكر الصولي، أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق، تحقيق: هيورت، دار المسيرة، بيروت، ط2، 1979م، ص168.

عمود الشعر، ومعنى ذلك أن الخيال لم يشتط في رسم صورة النخلة، ومن ثم فإن الأسطورة هي كذلك لم تكن قوية بالمعنى الذي يوضح خصوصية للنخلة في بعدها الطقسي أو العرفي، ولكن ترد بعض الإشارات الدالة على إضفاء مسحة من الغرائبية والعجائبية على النخلة، من ذلك أن النخلة تعشق ويحصل لها من الوجد والوله ما يؤثر على إنتاجها، فقد أورد صاحب كتاب مصارع العشاق أن ابن حرب « قال: سمعت أبا مسلمة المنقري يقول: كان عندنا بالبصرة نخلة ذكر من حسنها وطيب رطبها. قال: ففسدت حتى شيّصت: قال: فدعا صاحبها شيخاً قديماً يعرف النخيل، فنظر إليها وإلى ما حولها من النخل، فقال: هذه عاشقة لهذا الفحل الذي بالقرب منها. قال: فلقحت منه، فعادت إلى أحسن ما كانت »[126].

وإذا حضرت النخلة في الحلم فهي تعني الشعر، من ذلك ما رواه الراغب الأصفهاني من أن ابن سيرين قال لمن رأى في منامه أنه أعطي نخل امرئ القيس، قال له « أتقول الشعر؟ قلت لا، فقال: أما أنك ستقول مثل شعر امرئ القيس إلا أنك تقوله في قوم طهرة »[127]، وفي الحقل الصوفي ورد أن الشيخ أحمد بن الرفاعي قد عيّن نخلة بذاتها وقال « لأصحابه إذا استويت أهديناها إلى الشيخ رسلان، فمر بها بعد مدة فوجد أكثر ما عليها قد راح، فسألهم فقالوا لم يطلع إليها أحد، لكن في كل يوم يجيء إليها بازي أشهب يأكل منها ولا يقرب غيرها ثم يطير فقال لهم: البازي الذي يجيء إليها هو الشيخ رسلان »[128]، فالمتأمل في هذا الخبر يلحظ بوضوح دلالة الارتفاع الذي يعني الطهر والسمو عند المتصوفة، فالشيخ رسلان يتحوّل إلى صورة طائرة، ويأتي إلى النخلة فيأكل منها، وعلاقة النخلة بالمتصوفة في بلادنا معروفة، فعند طائفة منها تدعى الطريقة العيساوية إذا أخذت الحضرة في الاكتمال وحميت من خلال الطار ودخول الشيخ إلى الحلقة، فإن بعض المريدين يتسلق إلى النخلة ويقوم بالتجول في قلبها وذلك كله في نظرهم من الكرامات.

126- السراج القارئ، مصارع العشاق، ص281.
127- الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ص246
128- صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، ص197.

ومن المستطرف في أخبار النخلة ما أورده الإبشيهي من أن النخلة ترفض أن يغتصبها الحاكم، يقول: « حدثني بعض الشيوخ ممن كان يروي الأخبار بمصر قال كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب [أربعة وعشرون صاعا] ولم يكن في ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك فغصبها السلطان فلم تحمل شيئاً في ذلك العام ولا تمرة واحدة »[129].

نخلص إلى أن تجسيدات النخلة في النص التراثي شكّلت فضاءً نصياً تم من خلاله تمرير الهوية الثقافية لمنتج النص، حيث كانت النخلة دالاً على المسكوت عنه أو المضمر، وتحوّلت إلى علامة ذات أبعاد أخرى لا يتم اكتشافها إلا من خارج النسق الذي أنتجت فيه، ومن هنا كان التركيز على المكون الجغرافي لمفردة النخلة في الشعر العربي ليتضح من خلالها النسق التغالبي ما بين الثقافتين البدوية والحضرية، في حين كان النص الديني مؤكّداً قدسية النخلة وإعطاءها بعداً خاصاً، ومن يعترض أن الأحاديث معظمها موضوع وغير صحيح، فهذا لا ينفي كونها نصوصاً أرادت تمرير ثقافة وهوية مقموعة فاختارت النسق الديني وسيلة لذلك، فالباحث لا يُعنى بالتأصيل المعمول به في الأحكام الشرعية بل يأخذ النص بوصفه معطى ثقافي يحمل خطاباً محدداً وهذا ما حاول الباحث الوقوف عليه إذ أظهرت النصوص النسق التوافقي في الخطاب النبوي، ولم تكن النصوص الشعرية ملبية لغير نسق الفحولة حيث غلبة الإطار الأيروسي على الربط بين النخلة والفرس من جهة، والنخلة والناقة من جهة أخرى.

129- شهاب الدين الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، مؤسسة عزالدين للطباعة، والنشر، بيروت، بلا، 1996م، ج1، ص181.